

مشروع نقد العقل العربي: من نقد الخطاب إلى التعريف بالقرآن

يوسف بن عدي(*)

أسناذ باحث في شؤون الفلسفة والفكر العربي المعاصر،
أكاديمية مراكش - المغرب.

مقدمة

إن «مشروع نقد العقل العربي: من نقد الخطاب إلى التعريف بالقرآن» هو بحث عن إيقاعات التفكير النقدي أو الإيبستيمولوجي لدى المفكر المغربي محمد عابد الجابري، وذلك من خلال بعض النصوص الأساسية الممتدة من نقد الخطاب العربي المعاصر (١٩٨٢)، إلى كتاب مدخل إلى القرآن (٢٠٠٦).

لا شك في أن محمد عابد الجابري قد عرف بنقده «العقل» كأداة منتجة وليس كمضامين.. إذ كثيراً ما راكم الفكر العربي معارف ومنتوجات في الفقهيات والكلاميات والفلسفات.. بيد أن هذا الفكر لم يستطع أن ينتقد الأداة المفكر بها. من هنا كانت فرادة الرجل في فتح حقل من حقول التأمل والتفكير، وهو الذي تبلور في مشروع نقد العقل العربي بأجزائه الأربعة. ومن هنا كانت الرؤية المنهجية عند الجابري تتجسد في المعالجة البنيوية، والمعالجة التاريخية، والطرح الأيديولوجي.

لقد تصوّر الجابري أن الفكر العربي والإسلامي، بمختلف المشارب والاتجاهات، ينحرف في دائرة وحدة الإشكالية. هذه الأخيرة التي يتم تفعيلها من خلال الحقل المعرفي^(١) المتمثل في الجهاز التفكيرية: مفاهيم، تصورات، منطلقات، ومناهج.. إلخ، والمضمون الأيديولوجي: الوظيفة السياسية والاجتماعية التي توجه تلك المادة المعرفية. وبهذا، فإن استحضارنا منطلقات الرؤية.. وخطوات منهج الكاتب، إنما للوعي بطبيعة حضورهما في النصوص في علاقتها بالقضايا والموضوعات المطروحة.

youssef_ben_addi@hotmail.com.

(*) البريد الإلكتروني:

(١) محمد عابد الجابري، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط ٥ (بيروت؛ الدار

البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦)، ص ٢٩.

يعتبر كتاب **الخطاب العربي المعاصر** (١٩٨٢)، هو الإعلان الأولي للممارسة النقدية للخطاب النهضوي بأنواعه الأيديولوجية والنظرية والسياسية. غير أن الجابري قد حدد في مستوى الخطاب والقول رؤية تشخيصية تتعقب علامات «اللاعقل» في خطاب النهضة والتقدم، تلك الرؤية التي توسلت منهجاً إبستمولوجياً يقوم على النظر في أدوات التفكير ووسائل النظر في حد ذاتها. بيد أن هذه الرؤية ما فتئت تطور الإيقاع النظري والمنهجي في قراءة الفارابية والسينوية والرشدية والخلدونية... بحيث رسم الجابري في كتابه: **نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي** (١٩٨٦) منطلقات تفكيره في بؤادر المشروع النقدي.

وغيرضنا من كل ذلك، هو النظر في كيفية بناء الجابري اليوم لخطاب إصلاحى عربي إسلامي من خلال القيم والأخلاق، من جهة أولى، ومن جرّاء إعادة قراءة القرآن الكريم في ضوء السيرة المحمدية؛ فكان الإصلاح الديني في الثقافة العربية المعاصرة، من جهة ثانية.

أولاً: نقد الخطاب العربي المعاصر: في «علامات اللاعقل»

لقد شرع د. الجابري في افتتاحية كتابه **الخطاب العربي المعاصر** (١٩٨٢) في تحديد طبيعة الرؤية والمنهج المستثمرين فيه... أعني القراءة التشخيصية. يقول الكاتب: «لا يهمننا الآن إن كانت هذه القراءة تنتقل في بناء جديد ما ينطق به النص، وهذا مستوى من القراءة، أو أنها تستنطقه من أجل أن تكشف وراء البناء المباشر الذي يتقدم به بناء آخر مباطناً له أو ملازماً له نوعاً من الملازمة، وهذا مستوى آخر من القراءة»^(٢). وهذا يعني بيان عيوب الخطاب والقول، وليس إعادة بناء الأطروحات الأيديولوجية والاجتماعية، التي سيخصص الكاتب لها كتاب **وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر** (١٩٩٢).

إن تشخيص الخطاب هو الوقوف عند تهافته وتناقضاته ما بين المفهوم والواقع. إذ إن ذلك يبرز علامات «اللاعقل» في فكرنا النهضوي العربي. ومن ثمة فإن قراءة الجابري هي قراءة إبستمولوجية تنظر في آليات الخطاب وطرق تعبيره والكيفية التي يقول بها.. بدلاً من الميل إلى التصنيفات الأيديولوجية.. وهذا كله في نطاق العقل العربي.

لقد تناول الكاتب في **الخطاب العربي المعاصر** (١٩٨٢) أصنافاً من الخطابات السلفية والليبرالية والقومية والفلسفية.. التي - كل هذه الأنواع والأصناف من الفكر العربي المعاصر - تندرج ضمن «الخطاب النهضوي العربي العام».

ومن هنا كانت رؤية الجابري في تفكيك مقولات هذا الخطاب النهضوي إنما ترنو إلى

(٢) محمد عابد الجابري، **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ط ٢ (بيروت: الدار

«إبراز ضعفه وتشخيص عيوبه وثغراته»^(٣). وأما من حيث المنهج، فقد لعب المنهج الإيبستيمولوجي الدور الأساسي في فحص الخطاب وتشريحه.. الذي أدى إلى كشف «إخفاء تناقضاته وإضفاء ما يلزم من المعقولية على نفسه»^(٤).

إن تحليل الخطاب النهضوي العربي من قبل د. الجابري إنما يتم من خلال «الثنائيات» الفكرية والأيدولوجية.. التي هي باعث كشف زيفها وتناقضاتها على مستوى الواقع الاجتماعي والسياسي وعلى مستوى الفكر والتعقل... ومن ثم كان مشروع النهضة مشروعاً يسكت عن التوتر المهيمن على الخطاب..؛ أعني السكوت عن عصر الانحطاط لدى النموذج السلفي، والسكوت عن التهديد الاستعماري في الخطاب الليبرالي. وهذا هو ما يجعل الخطاب النهضوي العربي خطاباً محكوماً بتفسير الواقع انطلاقاً من «نموذج جاهز. وهذه هي الثغرة الواسعة والعميقة في وعي العرب بالنهضة»^(٥).

الخطاب القومي العربي تمسك بـ «الممكن الذهني» قبل التجربة الناصرية، وبجزء من «الممكن الواقعي» خلال هذه التجربة.

ولعل من معضلات هذا الخطاب وفق النقد الإيبستيمولوجي هو تلك الطريقة المشتركة في التفكير ما بين منطق السلفي ومنطق القومي والليبرالي في مفاهيم: .. النهضة.. والسقوط...؛ كل ذلك جعل خطاب السلفي والليبرالي والقومي والماركسوي العربي.. خطاب وجدان لا خطاب عقل.

كما إن من سمات الخطاب النهضوي العربي أنه يقع في شراك «السلفية» سواء كانت استحضاراً للتجربة الإسلامية قبل ظهور الخلاف أم استحضاراً للمبادئ الأوروبية الحديثة من قبل الليبرالي العربي.. يقول الجابري: «يسكت الخطاب السلفي - الليبرالي عن واقع «العقل العربي» عن مكوناته وثوابته، عن نقائضه وتناقضاته...»^(٦).

وهكذا تمكّن الجابري من معالجة أهم القضايا الأساسية، وهي: علاقة الدين بالدولة في إطار الخطاب السياسي، الذي هو جزء من الخطاب النهضوي العربي العام. يقول محمد عابد الجابري: «الحق أن ما يلفت النظر في الفكر العربي الحديث والمعاصر هو ضحالة الخطاب السياسي فيه، نقصد الخطاب الذي يطرح مشكل الدولة والمجتمع والعلاقة بينهما من منظور يعالج بالأساس مسألة السلطة»^(٧). ومن ثمة فإن المشكل الحقيقي في فكرنا العربي هو مشكل «الديمقراطية» وليس قضية العلمنة. وعلى هذا كانت مهمة الجابري في كتابه: **وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر**، هي إعادة بناء الخطاب والرؤية وليس فقط إبداء

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٩.

رأى في مسألة معينة. وذلك من خلال تفكيك الطرح الأيديولوجي والمذهبي لقضايا الفكر العربي المعاصر^(٨)، وإعادة بنائها من جديد؛ أي النظر في ثنائيات: العروبة والإسلام، الديمقراطية والشورى، التجديد والإصلاح.. إلى آخر الشعارات التي رفعها الخطاب العربي الحديث والمعاصر.

إن فحص بنية الخطاب العربي السياسي وكشف تناقضاته ومآزقه.. إنما يتمان من جراء فحص مقولة «المستبد العادل» التي تجمع ما بين الاستبداد والعقل في فكر محمد عبده، حيث يتجلى التناقض والمفارقة، وإن كان الكاتب محمد الحداد قد رأى أن هذا الأمر إنما يدل على الفعالية المعرفية والنظرية. وهكذا فإن مشكلة الخطاب العربي لا تتعلق بزيف الإشكالية أو التباسها فحسب، وإنما أيضاً بـ «انقطاع العلاقة المباشرة بين الفكر وموضوعه، بين منطوق الخطاب ومضمونه في الأدبيات النهضوية العربية الحديثة والمعاصرة»^(٩). لهذا كان الخطاب السياسي العربي «خطاباً غير مباشر»، لا يمارس السياسة في الواقع الراهن بل يمارسها في «واقع» آخر، يقع إما «قبل»، كفعل تحقق، وإما «بعد»، كإمكانية يرغب في تحقيقها أو يخاف منها^(١٠). كما إن الخطاب القومي بدوره هو جزء من الخطاب النهضوي العربي، الذي يقع هو ذاته على مستوى الخطاب وبنيته ومنطوقه في القراءة الزائفة التي تظهر من خلال أفكار نخبة من المفكرين القوميين الذين عرج عليهم د. الجابري، ومنهم: الطيب التيزيني وياسين الحافظ ونديم البيطار.. حيث «تدفع بنا «دروس التاريخ» إلى «عنق الزجاجة» من جديد؟». ومن ثمة تحول هذا الخطاب القومي بفعل الأحداث والوقائع.. إلى خطاب «تحرير فلسطين» وخطاب «الوحدة».. يقول الجابري: «العقل العربي قد اعتاد التعامل مع الممكنات وكأنها واقع»^(١١)، ويردف الكاتب أيضاً: «الخطاب القومي العربي قد تمسك بـ «الممكن الذهني» قبل التجربة الناصرية وبجزء من «الممكن الواقعي» خلال هذه التجربة»^(١٢). وبالتالي، فإن فشل الخطاب في التلازم الضروري بين الوحدة والاشتراكية، وبين الوحدة وتحرير فلسطين.. إنما ينتهي إلى «عدم قدرة العقل المنتج لذلك الخطاب على أن يجعل منه بناء نظرياً متماسكاً يفسر الواقع ويقدم الإمكانيات النظرية المطابقة لتغييره. بعبارة أخرى، إن فشل الخطاب معناه هنا عدم قدرته على التحول إلى أيديولوجيا علمية: أيديولوجيا تعتمد تحليل الواقع من أجل تغييره»^(١٣). أي أن الخطاب العربي الحديث والمعاصر هو خطاب «الممكنات الذهنية» لا خطاب الواقع والمعطيات.. لذا أضحت هذه الخطابات النهضوية والقومية والسياسية.. خطابات متوترة تخفي التناقضات والمآزق في بنيتها ومنطوقها.. وكيفية قولها المقول.

(٨) محمد عابد الجابري، وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر (بيروت؛ الدار

البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢)، ص ١١، ٤٥ و ٥١.

(٩) الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، ص ٩٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٩٢.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٩٢.

وأما الخطاب الفلسفي العربي فد «لم يتردد هو الآخر في إعلان انتمائه إلى الإشكالية العامة للنهضة، فقد بقي مناقضاً لنفسه لطموحاته ومبررات وجوده (...) إن ما هو غائب هنا ليس المعقولية وحدها، بل العقل ذاته»^(١٤). ويظهر هذا الغياب من خلال النماذج التي استثمرها المفكر العربي محمد عابد الجابري لتشريح مفاصلها ومرتكزاتها. وأما الخطوة الأولى فهي سعي هذا الخطاب الفلسفي العربي إلى «تأصيل» فلسفة الماضي.

وقبل، وبعد، فإن الخطاب الفلسفي العربي المعاصر إنما يحمل هو أيضاً تهافته وتناقضه في ذاته، بحيث نجد صاحب «التمهيد» ينطلق من نزعة سلفية مبتدأها الانطلاق من «البدائية».. إضافة إلى إعلان الخطاب الماركسي بأنه خطاب «من أجل» المنهج المطبق». والحال أن «المنهج يكثف نفسه مع الموضوع والموضوع يغتني، بل يتجدد بفعالية المنهج... إن ذلك سر قوة هذا الخطاب.. عندما يكون حقيقياً، أنه في هذه الحالة يفرض نفسه عليك فرضاً: إما أن تأخذه ككل.. وأما أن تتركه ككل»^(١٥).

وأما من حيث تأسيس «فلسفة عربية» معاصرة، فقد شرع الجابري في بيان مدى فعالية مطارحات هؤلاء المفكرين العرب للفلسفة العربية الأصيلة. لقد رسّخ بدوي منطق الوجدان الذي يخالف مبدأ عدم التناقض. هذا الأخير الذي هو مبدأ العقل. من هنا يقدم لنا بدوي الوجدان مقابل العقل. وأما «الجوانية» لعثمان أمين فقد ظلت مشدودة إلى كل ما هو «لاعقلاني». يقول د. الجابري: «وذلك مظهر آخر من مظاهر إشكالية» «الأصالة» و«المعاصرة» في فكرنا العربي المعاصر.. مظهر تتخذ فيه هذه الإشكالية صورة الجمع بين «أصالة» اللاعقل العربي و«معاصرة» اللاعقل الأوروبي... كل ما ينتمي إلى الماضي العربي «أصيل» وكل ما ينتمي إلى الحاضر الأوروبي «معاصر».. حتى لو كان الأمر يتعلق باللاعقل هنا وهناك»^(١٦).. والأمر ذاته الذي رسمه زكي الأرسوزي في «فلسفة الرحمانية».

من هنا كان التناقض والتهافت في الخطاب الفلسفي العربي على مستوى البناء والصيغة وعلى مستوى الهيكل العام.

وعلى هذا فإن الخطاب النهضوي العربي المعاصر، بمختلف أصنافه، القومية والسياسية والفلسفية، إنما ترتد عوائقه على مستوى الخطاب وبناءه إلى تناقضه وتهافته، إلى الجمع بين قضايا وثنائيات بصورة مغلوبة أو طرح إشكالات زائفة غير حقيقية، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، إن هذا الفكر النهضوي العربي هو بدوره «عبارة عن قراءات لفكر آخر هو إما التراث العربي الإسلامي وإما الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر»^(١٧). ولعل الأساس العميق لهذا التناقض هو البحث عن الحل في «الاستقلال التاريخي التام للذات العربية». ويعني هذا،

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

التحرر من الآخر سواء كان التراث أم الغرب. يقول الكاتب: «إن الحاجة تدعو اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى تدشين «عصر تدوين» جديد يكون نقطة البداية فيه نقد السلاح.. نقد العقل العربي»^(١٨).

أخيراً، وليس آخراً، إن القراءة التشخيصية للخطاب العربي المعاصر كانت محط نقد من قبل د. محمد الحداد من حيث إن التناقض في الخطاب لا يعني التهافت بقدر ما يدل على نظام التسمية والاختيار السيميولوجي للمقولات والمفاهيم.. كالفراغ والذاتية والمعنى بالغلبة.. بيد أن السؤال الذي يبقى مطروحاً هو: كيف تمكّن الجابري من بناء الخطاب النهضوي العربي الحديث والمعاصر بعدما أنجز مهام التشريح والتفكيك والفحص...؟ وهذا ما سوف يجيب عنه الجابري من خلال كتاب وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر.

ثانياً: نحو بناء خطاب إصلاح عربي: من العمل الصالح إلى تحرير «حدث الوحي»

إن أفق تفكير الجابري في نقد الخطاب العربي المعاصر ليس إلا لحظة من لحظات التفكير الإيبستيمولوجي في بنية العقل العربي، الذي يتجلى في مظهر من مظاهر بحثنا ألا وهو: الإصلاح الديني.

لقد فكّر الجابري في خطاب مشروع نقد العقل العربي في إطار نظم المعرفة (العرفان والبرهان والبيان)، مما يتطلب رؤية منهجية محددة وفق موضوعات التعقل والمقاربة. وهذا ما سنعمل على رصده، سواء على مستوى القيم والأخلاق أم على مستوى العقيدة والشريعة.

يعتبر القسم الرابع من كتاب «بنية العقل العربي» (١٩٨٦)، والمعنون بـ «تفكيك النظم ومشروع إعادة التأسيس»، مراجعة جذرية للحضات التفكير العربي الإسلامي، وقد تم ذلك من خلال نقد مقولة «التداخل التلفيقي» السائدة في الثقافة العربية التي أوصلتها إلى «لحظة الأزمة»؛ هذه الأخيرة التي انعكست في تجربة الغزالي وإنتاجه. يقول الجابري عن «التداخل التلفيقي»: «التداخل بين بنيات لا بوصفها بنيات مستقلة بنفسها محصنة بقدرتها على استعادة توازنها الذاتي... بل بوصفها بنيات فقدت هذه القدرة وصارت مفككة أو قابلة للتفكيك عند أول محاولة»^(١٩). ولعل فكر الغزالي هو الفكر الذي عمل على تفكيك النظام البرهاني بتحويل المنطق إلى مجرد آلة ومعيار، إضافة إلى ذلك «إدخال التصوف إلى الدائرة البيانية من بابها الرسمي، باب الفقه»^(٢٠). فأمام هذه اللحظة لم يكن رهان الجابري إلا تفكيك المأزق وتشريح الأزمة ثم إعادة بناء اللحظة من جديد من خلال رهان الرشدية.. وقبل ذلك من خلال معالم الظاهرية لابن حزم التي تعتبر من الناحية الإيبستيمولوجية مشروع تأسيس «البيان وإعادة ترتيب العلاقات بينه

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٩١.

(١٩) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة

العربية، نقد العقل العربي؛ ٢، ط ٢ (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩١)، ص ٤٨٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٩٠.

وبين البرهان مع إقصاء العرفان إقصاء تاماً»^(٢١). وهذا التأسيس لدى ابن حزم، في رأي الجابري، إنما يرجع إلى تبني طبيعيات أرسطو ورفض «الفيزياء الكلامية».. لهذا تم توظيف مفاهيم وتصورات جديدة. وهو الأمر ذاته الذي سار فيه فيلسوف الدولة المرابطية ابن باجه حيث تحرر من الكلاميات المشرقية وإشكالاتها. وهكذا وصلت اللحظة المؤسسة مع ابن رشد الذي انتقد مبدأ التجويز الأشعري، هذا الأخير الذي انعكس على فعل الطبيعة والفاعل الإلهي والإنساني على السواء. وهكذا فإن المسيرة النقدية في الغرب الإسلامي قد استمرت مع الشاطبي في الأصول ومع ابن خلدون في التاريخ.

تدعو الحاجة اليوم إلى تدشين "عصر تدوين" جديد يكون نقطة البداية في نقد العقل العربي.

إن كل هذه اللحظات النقدية مع ابن حزم وابن باجه وابن رشد والشاطبي وابن خلدون.. إنما تعلن عن نقلة إبيستيمولوجية نحو بناء خطاب برهاني عقلاني، وقطية إبيستيمولوجية مع مقولات الكلاميات والإلهيات المشرقية. وأخيراً، وليس آخراً، هل إعادة بناء الخطاب

البرهاني، سواء في الفلسفة أم في الأصول أم في التاريخ، تبشر بتفكير جديد في الإصلاح عامة؟

لقد رأينا في الفصل الثاني من دراستنا أن فكرة الإصلاح عند الجابري إنما ساهمت في رفع الغموض والالتباس للذين كثيراً ما هيمنوا على فكرنا العربي من خلال الاستغلال السياسي والأيدولوجي لمقولة الإمام مالك، ومحاولة توظيفها في صراعات الحاضر. إن هذه الوضعية الإبيستيمولوجية إنما دفعت الجابري إلى إعادة النظر وترتيب علاقاتنا مع الماضي الإصلاحية العربي وكذا مسارات الإصلاح الغربي. ومن ثمة فإن كلام الكاتب عن الإصلاح الملي/التعريف بالقرآن، والإصلاح القيمي/الموروثات الأخلاقية إنما يتأسس على مقولات الانفصال والاتصال، والقطيعة والتوتر.. إلخ.

لكن ذلك قد يعرف نوعاً من ارتداد إيقاع تفكير الجابري النقدي والمعرفي وحتى الأيدولوجي عمّا طرحه الكاتب من جرأة واندفاع قويين في صياغة الفكر النقدي، أو بالأحرى تحقيق القطيعة الإبيستيمولوجية مع كلاميات وإلهيات وأصول المشرقية ذات الطابع الإشراقي اللاعقلاني. ومن هنا تطرح عدة تساؤلات منها: هل استثمار الجابري في موضوع القيم والأخلاق أو في التعريف بالقرآن مفاهيم: الانفصال والانقطاع والقطيعة؟

لعل الجواب عن هذا السؤال إنما هو مبتدأ كلام د. الجابري، أي أن الموضوع هو الذي يحدد طبيعة المنهج. فلما كان الموضوع القيم والأخلاق، فإن التفكير بالنظم المعرفية: البرهان والعرفان والبيان، يعتبر غير ملائم، من حيث إن الموروثات الأخلاقية، الفارسية والعربية.. لا تحكمها المعقولة بل التفاضلية.

لا شك في أن نقد العقل الأخلاقي العربي (٢٠٠١) هو استراتيجية نقدية جديدة للعقل العربي في المستوى القيمي؛ أي أن القيم إنما شهدت صراعات في رسائل الأدب والشعر، حيث يتم ترسيخ مبادئ الاستبداد وأدب الطاعة. وهكذا فإن ما يهمننا في هذا الجزء الرابع من مشروع نقد العقل العربي هو النظر في محاولات هيمنة قيم فارسية من خلال قيمة «الطاعة»، وسيادة قيمة الموروث العربي من خلال «المروءة»، وتداول قيمة «السعادة» للموروث اليوناني.. في مقابل غياب الموروث الإسلامي المتمثل في قيمة «العمل الصالح».

لقد سادت محاولات في أسلمة الأخلاق كما يقول الجابري، التي تجلت في تأسيس المحاسبي لعلم «أخلاق الدين»، وعلم «أخلاق الآخرة». لكن مجهود الماوردي في أدب الدنيا والدين قد كان أكثر تميزاً وقوة. يقول الكاتب: «هكذا فباستعمال لباقة «الدبلوماسي» وبتوظيف ما أسماه: «تحقيق الفقهاء وترقية الأدباء» (التفريعات الفقهية والتنميقات الأسلوبية)، يوافق الماوردي ويصالح بين الفقه والتصوف ثم بينهما من جهة، وبين «أدب النفس» كما يقدمه الموروث الإسلامي الحديث بصفة خاصة، و«أدب اللسان» العربي من جهة أخرى، ليجعل من ذلك كله «أدباً» واحداً هو: «أدب الدنيا والدين»^(٢٢). وأما الراغب الأصفهاني فقد كان واعياً بالحاجة إلى «الأخلاق الإسلامية»، بيد أن صاحب كتاب: الذريعة..، كما يقول الجابري، تنقصه المنهجية، أي معيار العلم الذي هو المنطق لدى الغزالي. وقد قام حجة الإسلام بتأليف كتابه الشهير: إحياء علوم الدين. هذا الأخير الذي انتقده الجابري لقتله الاختلاف وإغلاق باب الاجتهاد. يقول الجابري: «إن كتاب إحياء علوم الدين كتاب في تقرير «الفكر الوحيد» في جميع الميادين التي هي أصلاً مجال طبيعي لاختلاف الآراء. إنه إعلان بـ «موت الاختلاف» وسد باب الاجتهاد ليس في الفقه فحسب، بل في كل علم ومعرفة. من هذه الناحية يجب النظر إليه كعنصر من أشد العناصر تخديراً في نظام القيم في الثقافة العربية. ومن هذه الزاوية فهو أبعد ما يكون عن الأخلاق الإسلامية الحقيقية، بل إن مشروعه فيه انحراف عنها على طول الخط»^(٢٣).

وعلى هذا، فإن تفكير محمد عابد الجابري في تأسيس خطاب الإصلاح إنما كان بكشف مؤسس الأخلاق الإسلامية الحقيقية المتمثلة في قيمة مركزية هي: العمل الصالح، الذي هو العزّ بن عبد السلام. كما كان رهان الكاتب في الوقت ذاته توسيع دائرة التفكير في الإصلاح الملي، عقيدة وشريعة.

لا شك في أن تتبع كتابات الجابري في رسم معالم الإصلاح العربي الجديد إنما يمتد في نص: في نقد الحاجة إلى الإصلاح الذي يعمل فيه برصد جذور الإصلاح العربي في المسار الغربي. إذ لم يتردد الجابري في كشف أن تأثير الموقف القرآني «المترجم إلى اللاتينية، على أفق الإصلاح الذي قام به لوثر، وقت كان فيه الموروث العربي الإسلامي يمارس سلطة واسعة مثل هذا التأثير على الفكر الأوروبي»^(٢٤). والمتأتى من ذلك، أن هذه المهام الإبيستيمولوجية النقدية

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٧٠.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٠.

(٢٤) محمد عابد الجابري، في نقد الحاجة إلى الإصلاح (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥).

في تأسيس خطاب الإصلاحية قيمياً وملياً إنما تتم من خلال إعادة بناء الفكر العربي وتجديده.

لقد بنى العز بن عبد السلام «أخلاق القرآن» على مبدأ المصلحة، فجميع المحاولات السابقة قد «ظلت كلها السبيل» في ترسيخ أخلاق إسلامية. يقول الجابري: «فالكاتب الأول قواعد الأحكام في مصالح الأنام أشبه أن يكون بديلاً لكل من كتاب الماوردي أدب الدنيا والدين وكتاب الراغب الأصفهاني الذريعة إلى مكارم الشريعة. أما الكتاب الثاني شجرة المعارف فهو أشبه ما يكون بديلاً قرآنياً لكل من كتاب المحاسب الرعاية لحقوق الله وكتاب الغزالي إحياء علوم الدين»^(٢٥)، ومن ثمة فإن مبدأ المصلحة قد رسّخه ابن تيمية في رسالته: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وعليه فإن رؤية الجابري قد فتحت المجال لدراسة الفكر العربي الإسلامي من جهة مراجعة التفكير في علاقة الديني بالسياسي.

لقد عمل الجابري في كتابه: مدخل إلى القرآن، في التعريف بالقرآن (٢٠٠٦)، على «تتبع

تمكن الجابري من تحرير المعجزة
المحمدية من المعنى الساذج
لمفهوم «النبى الأمي» وتأسيس
خطاب يربط الدعوة المحمدية
بمحيطها الداخلي والخارجي.

القصص القرآني باعتماد ترتيب السور حسب النزول بدل ترتيب المصحف»^(٢٦). وهذا يتم من خلال ربط مسار السيرة النبوية والمسار التكويني للقرآن، محققاً الكاتب عدة اعتبارات منهجية ونظرية أساسية. يقول الجابري: «وقد تمكنا من خلال اعتماد ترتيب النزول من إيقاظ الحيوية التاريخية التي لا بد منها لجعل موضوعنا معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في الوقت ذاته»^(٢٧).

ولعل هذه الاعتبارات إنما ترجع بنا إلى منطقات المنهج وخطوات الرؤية لدى الجابري في كتابه الشهير: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي (١٩٨٦)، الذي تحدث فيه عن تحقيق معاصرة النص لذاته أي الاتصال، ومعاصرة النص لنا على مستوى الفهم والمعقولة أي الانفصال^(٢٨).. وهكذا تمكن الجابري من تحرير المعجزة المحمدية من المعنى الساذج لمفهوم «النبى الأمي»، تأسيساً لخطاب ملي مركزي يربط الدعوة المحمدية بمحيطها الداخلي والخارجي.. يقول الكاتب: «عرضنا لـ «حدث الوحي» المحمدي في إطاره الأصلي الخالص وكشفنا عن التأويلات الأيديولوجية منها والسياسية التي ابتعدت به عن «العقل القرآني» لترتمي به في أعماق ما سبق أن أسميناه بـ «اللامعقول العقلي»^(٢٩).

(٢٥) محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة

العربية، نقد العقل العربي؛ ٤، ط ٢ (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١)، ص ٥٩٤.

(٢٦) محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن (الدار البيضاء:

دار النشر المغربية، ٢٠٠٦)، ص ٣٨٩.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٢٨) انظر: يوسف بن عدي، «التكوين» و«البنية» في التعريف بالقرآن: لحظنا «الانفصال» و«الاتصال»،

في: يوسف بن عدي، مسألة النص الفلسفي المغربي المعاصر (الدار البيضاء: جذور للنشر، ٢٠٠٧).

(٢٩) الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، ص ٣٩٥.

ومجمل الكلام نقول إن الجابري قد أحدث في كتاباته الأخيرة لغطاً وجدلاً مستمراً، وذلك راجع إلى محاولة تأسيسه خطاباً إصلاحياً على مستويين؛ أولهما، ترسيخه خطاباً أخلاقياً/ قيمياً إسلامياً حقيقياً ينبني على «مبدأ المصلحة أو العمل الصالح في نموذج العز بن عبد السلام»، وثانيهما، تأسيسه خطاباً إصلاحياً على مستوى العقيدة والشريعة، وذلك بارز من خلال ربطه فهمنا للقرآن بوقائع السيرة النبوية، ومحاولة الاعتماد على ترتيب السور بدلاً من ترتيب المصحف. إذ إن ذلك يخول لنا فهماً معقولاً وعقلانياً لطبيعة الشريعة والعقيدة على السواء. وبهذا فإننا أمام انتقال منهجي ونظري في فكر الجابري الذي يتجلى في إصلاح العقل عبر النقد والتفكيك لنظم المعرفة، إلى إصلاح القيم والعقيدة عبر ترسيخ العمل الصالح و«العقل القرآني» □

صدر حديثاً

حال الأمة العربية

٢٠٠٨ - ٢٠٠٩

أمة في خطر

مجموعة من الباحثين



«أمة في خطر».. هي الخلاصة التي توصل إليها تقرير حال الأمة العربية للعام ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩، وقد توقف في متابعته مستجدات حال الأمة عند نهاية الربع الأول من العام ٢٠٠٩ ما سمح له بمتابعة أحداث مهمة وقعت في تلك الشهور الثلاثة: تغيير الإدارة الأمريكية، العدوان الإسرائيلي على غزة وتداعياته، انتخابات المحافظات في العراق، انتخابات الكنيست في إسرائيل، القمم العربية المتلاحقة من الكويت إلى الرياض فالدوحة على اختلاف مستوياتها.

ولحظ تقرير هذا العام أن بؤر التآزم قد حافظت على ثباتها، ومن هنا تم تناول حالات العراق ولبنان والصومال والسودان، إضافة بالطبع إلى القضية الفلسطينية. لكن ما يلفت في تلك البؤر هو احتدام التآزم بوضوح واتخاذهُ أبعاداً جديدة لم تلازمه في السابق. ما يعني أن التراخي في تصفية بؤر التآزم ينذر بتفاقمها ولا يسمح بـ «رفاهة» بقاء الوضع على ما هو عليه.

٢٥٥ صفحة

الثمن: ٩ دولارات

أو ما يعادلها